العلم فى القرآن

للأستاذ فوزى عرفه

احتفى القرآن بالعلم احتفاء بالغا ووضع رجاله فى مكانة سامية عند الله نظرا لتجوالهم فى العالم الرحب الواسع وطول ترددهم على الآثار التى تفعم قلوبهم بالإيمان وتملأ نفوسهم بالهدى واليقين وتجعلهم أشد تمسكا بدينهم وأكثر تقربا من ربهم .

ولقد قسم القرآن العلم إلى نوعين نوع يختص به الله تعالى ونوع يختص به الإنسان . أما علم الله تعالى فقد تصور له مجالا شاملا محيطا بحيث لا يدع ذرة من الذرات ولا جزئية من الجزئيات إلا وتخضع لعلم الله القاهر الجبار . فالله بكل شىء عليم وهو سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويعلم الغيب والشهادة وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو وقال سبحانه « إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » وإلى جانب علم الله المحيط الشامل بما يقع تحت حس الإنسان وما لا يقع تحت حسه اقتصر الله تعالى بعلم خفايا نفس الإنسان أيضاً « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » « ويعلم ما يسرون وما يعلنون » كما أنه قصر على نفسه علم الساعة فقال « إلى ربك منتهاها » وقال « إن الله عنده علم الساعة وجعل علم الخير والشر والنفع والضر خاصا بالله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وفى آخر صورة لقمان يذكر القرآن الكريم خمسة أمور لا يعلمها إلا الله فيقول جل وعز « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » .

وهكذا نرى أن اختصاص الله بالعلم إنما يرد فى القرآن على مثال يعلو

إلى الذات الألهية ويتناسب مع مقامها الكريم بحيث يختص بأمور يعجز عن فهمها والتصرف فيها والتعرف عليها ذلك الإنسان الضعيف .

أما علم الإنسان فينقسم إلى قسمين قسم دنيوى أى يتعلق بالأمور المحسوسة وقسم إلهى أو يقينى يرفع الإنسان من أردان المادة إلى التفكر والتدبر والفهم والحكم وحسن الاستنتاج . فكان الأول مدخل للثانى أو وسيلة مؤدية إليه .

وإذا كان العلم بالنسبة لله جل وعلا هو الإحاطة الكاملة بعالم الغيب والشهادة وبالماضى والحاضر والمستقبل والسر والعلن فإن معنى العلم عند الإنسان فى جانب منه هو حصول صورة الشىء فى الذهن وانطباعها عليه بحيث ينتهى من هذا التصور إلى تصديق يتخذه دليلا فى حياته ولذلك قال تعالى « ولا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » ومعنى ذلك أن لدينا صورة كاملة لله تعالى فيتنافى مع علمنا بهذه الصورة الكاملة وجود الأنداد ومن هنا لا يقبل العقل تصورين متعارضين . وهكذا يكون معنى العلم بالنسبة للإنسان فى القرآن هو الفهم والوعى والمعرفة قال تعالى . « إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة » حتى ينزع الإنسان عن نفسه رداء الكسل ويقبل على الله بكنه همه .

إلا أن سبيل المعارف عند الإنسان ثلاث وهى العلم والهدى والكتاب المنير ويجمعها قوله تعالى « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » أما العلم فهو مجهود يقوم به الإنسان عامدا لكى يحصل على المعرفة عن طريق الاكتساب وهو يتوسل فى سبيل ذلك بوسائل دنيوية كما أسلفنا من أرض وسماء وشجر وماء وجبال ونعم وطلول ودوارس ليستدل منها على حكمة الخبير العليم فى خلقه فتمتلىء نفسه خوفا وحزنا ويستفيد من هذه الدروس مواعظ وعبرا « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ... لآيات لقوم يعقلون » « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » « قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون » وهكذا تمتلىء نفس الإنسان تفكراً وتدبرا وخشية وإيمانا .

إلا أن هنالك مثما آخر من العلم لا يناله الانسان بالكسب بل يأتى إليه بالهبة وهو علم لدنى يصبه الله فى قلب عبده المؤمن صبا ويقذفه قذفا دفعة واحدة دون تعاقب فتنجلى لذوى البصائر الفذة والأفهام الواعية خفايا الكون وخبايا الوجود قال تعالى « وآتيناه من لدنا علما » وقال على لسان يوسف الصديق « وعلمتنى من تأويل الأحاديث » وقال سبحانه « وعلمك مالم تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » وقال « وعلم آدم الأسماء كلها » وهكذا نجد أن هذا النوع خاص بالله تعالى يمنحه لعبده المؤمن عندما يختاره ويصطفيه .. الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » ولذلك قال تعالى « وأن الله يهدى من يريد » فجعل هذا النوع قاصرا عليه سبحانه وقال « من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » .

فالناس على هذا ثلاثة أصناف : قوم علماء ينالون علمهم عن طريق الكسب من النظر فى آثار الله وهؤلاء يصلون إلى خشية الله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقوم أصحاب مواهب ومنهم الأنبياء والصالحون . وأهل الكتاب الذين يتبعون آيات الله فى إيمان وإسلام .

ولكن هل كل ما يعلمه الإنسان نافع مفيد ؟ الجواب على هذا بالنفى قطعا لأن القرآن يقرر بأن هناك صنوفا من العلم تضر ولا تنفع كالسحر والشرور « ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا إذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » كما أن هناك علما محرفا وهو آيات الله البينات التى لجأت إليها الأقوام الضالة « يحرفون الكلم عن مواضعه » حتى يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا وبئس ما يشترون

ولقد أشار القرآن فى مواضع كثيرة عن آفات العلم الصحيح لا الفاسد وجعل آفته الكبرى هى الجهل وخصوصا بالدين لأننا عرفنا أن العلم فى القرآن هو العلم الذى يؤدى إلى الدين سواء كان من المكاسب أم المواهب ويحدد القرآن أنواع الجهل وهى الامتراء أو الشك الذى لا يؤدى إلى يقين بل ضياع وعبث « فلا تكون من الممترين » « أفتمارونه على ما يرى » ومن الامتراء الصدوف « فمن أظلم ممن

كذب بآيات الله وصدف عنها ، والاقتداء ، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، والافتراء ، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، والظن ، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهم أعلم بمن اهتدى والهوى ، وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ، ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، وهكذا ترى أن القرآن عندما تحدث عن العلم تحدث عن آفاته التى تعرض له وبين لنا كيف نستطيع أن نبحث هذه الآفات ونعمل على التخلص منها كما أنه جعل غاية العلم بجميع أنواعه غاية سامية وهدفا نبيلا ألا وهو دار الخلود والقرار والنعيم .

فوزى عرفة

الرسول

ومكارم الأخلاق

- إن من خياركم أحسنكم أخلاقا .
- أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا .
- إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم .
- مكارم الأخلاق من أعمال أهل الجنة .